

خطاب المدح

في القرآن الكريم

- ١ -

في القرآن الكريم من اتقى الروحية والآداب ، والحكم والأمانات والقواعد والأحكام ،
والمواعظ والأخبار . ما جعله قبلة أنظار العلماء قاطبة .
فأعقبه ، والنحوي ، والبلاغي ، والتصانيف الأخلاقي ، والمصلح الاجتماعي ، الكل
يجد فيه بعينه ، حتى العالم الذي يعنى بالحقائق الموضوعية البحتة يجد فيه ما يدفعه إلى البحث
ويشجعه عليه .

لذلك ترى العلماء قد عنوا به أهدى عناية ، وخدموه أجل خدمة بحثوا فيها حواء من
كل نواحيه . بحثوا في أسباب نزول الآيات ، وفي مكان نزولها ، وفيما نزل منها في السفر
أو الحضر ، وفي الليل أو النهار ، وفي الصيف أو الشتاء . بحثوا في كل هذا ، وبحثوا فيه
من ناحية لفظه عن الغريب ، والمعرب ، والمشارك ، والمترادف ، والمجاز ، والاستعارة ،
والتشبيه . كما بحثوا فيه من ناحية معناه عن المطلق والمقيد ، والناصح والمنسوخ ، والعام
والخاص ، والعام الذي أريد به الخصوص ، وسرد هذا أمر يطول ويخرجنا عن الغرض
الذي نهدف إليه .

وتراهم قد بحثوا فيه من ناحية الأداء عن كيفية الوقف والابتداء والامالة والتخفيف .
وبحثوا في وجوه خطابه عن خطاب الجنس ، والنوع ، والعمى ، وخطاب المدح وهو ما نحن
نصدد الكلام فيه . ووجوه الخطاب في القرآن الكريم حصرها ابن الجوزي في خمسة عشر

نوعاً وقال غيره هي أكثر من ثلاثين . وعلى كل فنها خطاب المدح وهو كل آية وردت مصدره بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا »

ولقد عنيت بهذا الخطاب في جميع سور القرآن الكريم على أثر كل قرأتها لابن مسعود رواها أبو نعيم في « الحلية » والسيوطي في « الاتقان » بسنتين مختلفين وهما هي ذي :
 إذا سمعت الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا فأوعها فصمك فإنه خير يؤمر به ، أو شر ينهى عنه . وابن مسعود هذا وزير من وزراء النبي صلوات الله عليه ، وعلم من أعلام السابقين المهاجرين المعروفين بالنسك من المعمرين وكان فقيهاً يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكان يقول أني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة . وإذا كان القرآن مأدبة الله كما كان يقول فإني أقدم لقراءه المقتطف أروافاً من هذا الخطاب خطاب المدح غذاء للعقل والتلب .

إن هذا الخطاب في القرآن الكريم خير يؤمر به ، أو شر ينهى عنه ، وهذه المجموعة الجيدة من الأوامر والنواهي خلقية بأن ترفع بني آدم — إذا آمنوا بها حتى الإيمان — من حضيض الهيبة المظلمة إلى سماء الروحية الميرة .

وهذه التوجيهات العظيمة التي ترسم القيم الروحية ، وتضرب الأمثال العليا ، وتخط الآداب السامية ، خوطب بها الذين يؤمنون لأن قوة الشعور في بني الإنسان إنما تنبى على التقاليد ، وهذه التقاليد لا تتم إلا بأمانة تضرب من جانب المؤمنين لبقندي بهم طامة الناس لذلك كان على العلماء والنقاد : والمصلحين وأرباب الرأي أن يكونوا أولاً وقبل كل شيء مثلاً علياً وإلاً فأثرهم ضعيف ضئيل ، إن أمكن أن يكون لهم أثر .

إن الشرق كان يحمل نواه النهضة يوم كان فيه مثل عليا في العلم والأخلاق والأحسان وتقديس الحق ، فأحرارنا أن نعيد للشرق مجده بضرب الأمثال .

إن سعيد بن المسيب دعى للبيعة الوليد والسليمان بعد عبد الملك بن مروان فقال :
 لأبأس أذن ما احتلف البديل والنهار فقبل له ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر . قال :
 والله لا تقندي في أحد من الناس حادثة صرط فلم يدركه هذا المخذ عن رأيه .

فإذا أردنا أن نتبرأ مكاننا بين الأمم في العلم والعمل، فويل لمن لا يعلم، وويل لمن يعلم ولا يعمل. وفي خطاب المدح في القرآن الكريم مادة غريبة إن أراد أن يروض نفسه على ذلك.

وأول خطاب تقرأه في القرآن الكريم أن يعالج ناحية هي في واقع الأمر الأساس الأول في الاجتماع. تلك هي ناحية تخير الألفاظ في الحديث. فلقد نهى عن استعمال الألفاظ الجافة التي تحمل معنى نازلاً ومدلولاً لا يناسب حال المخاطب.

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم »

وكلمة راعنا هذه التي كرهها الله في هذا الخطاب مأخوذة من الرعى والرعى حفظ الغير لمصلحة شخصية لا حفظه للعالم انعام. وذلك محل تعظيمه صلوات الله عليه. وفيه فظافة وتجهم. وكلمة انظرنا التي أمرنا أن نقيمها مقام الكلمة الأولى خالياً مدلولها من التذليل التي تحمل الكلمة المنهي عنها إذ معناها اربنا نهم ونقبن ما تقول والنظر إلى الانسان وقت الخطاب أقوى في الأفهام والتعليم. وروي في سبب نزول هذا الخطاب أن اليهود كانوا يقولون ذلك للنبي بنية خبيثة، فقدم المسجون في ذلك فترك هذه الآية بالنهاي عن الكلمة التي تحمل معنى التذليل إلى كلمة خالية منه. وهذا تعليم فيه مموه ورفعة يقوي الروابط الاجتماعية بين أفراد الجمعية الانسانية. أما الكلام القارح من المعنى السامي نيوتنا في العراك والخضاء. فكم من أسرة قائمة انهارت بسبب كلمة نابية. وكم من تخاصم سبته كلمة لم يفكر في اختيارها قبل أن تطلق من عقابها. وعبد الله بن مسعود هذا الذي تقدم الكلام عليه كان يقول: « والله الذي لا إله إلا هو ما على ظهر الأرض شيء أخرج إلى طول سخن من لسانه. وجاءه رجل فقال له أوصني يا أبا عبد الرحمن. فقال له: ليسمك بيتك وأكف لسانك، وأبك على ذكر خطيئتك. وهذا قليل من كثير ورد في هذا المعنى. ولست في حاجة إلى التنبيه على أن المراد سخن لسان وكفه، إنما يتعلق بالسكوت المتفارقة التي لا نصر ولا تنفع.

وهذه الناحية ناحية تغيير ألفاظ الحديث عنى بها خطاب المدح في موضع آخر . فقال تعالى في سورة الحجرات « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ لِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَدْرُوا أَلْفَاظُ الْقَوْمِ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بَشَرًا وَلَا نِسَاءً عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

روى في أسباب نزول هذا الخطاب أن خطيب الأنصار وخطيب النبي صلوات الله عليه ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنيه وقرء وكان إذا أتى رسول الله أو سمعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يوماً وقد أخذ الناس بما عليهم فعمل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفصحوا تفصحوا . فقال له رجل : أصبت مجلساً فجلس . فجلس ثابت مفضباً . ثم قال لارجل : يا فلان ابن فلانة يريد أمسا كان يعير بها في الجاهلية . فسكت الرجل استحياء . هذه حادثة . وروى عن ابن عباس حادثة أخرى . وهي أن صفية بنت حيي زوج النبي أتته يوماً فقالت له : إن النساء يعيرنني ويقلقن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال لها : هلا قلت : إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد . فنزل هذا الخطاب الكريم بعد هذه الحادثة مع النساء ، وتلك مع الرجال .

نهى هذا الخطاب عن السخرية فلا يحل ادخس أن يسخر من آخر لقرءه . أو لثوب ارتكبه أو لغير ذلك . ونهى عن اللز ، وهو السب خلف الأذن . وعن التناز بالآفات وهو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

هذا مثل من الأدب الرفيع الذي جاء به خطاب المدح والذي صار على سنته بعض الناس فسادوا ، فصدت بشره رجا أن نتحي من أقتناء وتأنف مما يتألف هذه الآداب . وليس يحتاج الأمر أكثر من تمرين النفس عليها وتدريبها اليها بعزيمة من عزمات أولي العقول ، وما أشد حاجتنا إلى ذلك ، فانك إذ تسعت إلى الناس في الطرقات والبيوت والأندية لا تسكاد تصدق أن هؤلاء يقرأ بينهم كتاب الله صباح مساء أو لا تسكاد تصدق أن هؤلاء قد فضلوا بنعمة العقل .

شهر رجب

الدرس بحجة أسرار الدين

بفتح